تفتيت الشرق الأوسط (تاريخ الاضطرابات التي يثيرها الغرب في العالم العربي

جيرمي سولت

كاليفورنيا: طباعة جامعة كاليفورنيا، ٢٠٠٩، عدد الصفحات: ٤٨٠
السعر: ١٨.٩٥ دولار.
ISBN 9780520261709

لم يعد مصطلح "الحرب العالمية على الإرهاب" مصطلحا مألوفا، بل أصبحت الدبلوماسية والتنمية هي أهم العناصر الأساسية في الجهود المبذولة لمكافحة التطرف الإسلامي، وأصبح من المؤكد أن القوة المسلحة، "الخيار الافتراضي"، للتعامل مع الارهاب الذي يتم ارتكابه باسم الإسلام هي التي تعزز يد الإرهاب والإرهابيين، وفي ذات الوقت، ومن ناحية أخرى، نجد في "الانقسام الحضاري" – لصموئيل هنتنغتون أنه مع وحشية الحرب على الإرهاب التي تقودها الولايات المتحدة، وما يصاحبها من جهود بناء الدولة؛ فقد أصبحت الحكومات في العالم الإسلامي فاسدة وقمعية وغير مؤهلة، ومع ذلك فإن استبدال مثل هذه الأنظمة بهؤلاء الذين يذبحون الغربيين والمسلمين باسم الإسلام؛ من شأنه أن يجعل الأمور أسوأ مما هي عليه الآن.

ومن الواضح أن الجهود المبذولة من كلا الجانبين للتوصل إلى إيجاد أرضية مشتركة تسير على الطريق الصحيح، فكتاب جيرمي سولت "تفتيت الشرق الأوسط (تاريخ الاضطرابات التي يثيرها الغرب في العالم العربي)" يعتبر بشكل مفصل توثيقا وتحليلا عميقا للغضب الكبير تجاه الهيمنة الغربية على المنطقة، بدءا من غزو نابليون لمصر في عام ١٧٩٨م، إلى منتصف العقد الحالي.

يُدرِّس البروفيسور سولت في قسم العلوم السياسية في جامعة بلكنت، في العاصمة التركية أنقرة، وقد انخرط في قضايا الشرق الأوسط منذ وصوله إلى بيروت كصحفي شاب في عام ١٩٦٥م، ومن خلال مقدمة الكتاب، يشير سولت إلى "التشابه عبر القرون" بين الطرق التي تم بها تبرير التدخل الغربي في شئون الشرق الأوسط ووجود "باثولوجيا معينة" (علم الأمراض) تتضمنا

نحن وهُم، وبمعنى آخر: ما " يحق لنا أن نفعل، وكيف عليهم (هم) أن يستجيبوا إذا ما أرادوا تجنب العقاب".

هذا "الأساس الثقافي" هو حجر الأساس الذي يرتكز عليه كتاب البروفيسور سولت المكون من أربعة أجزاء، فالبروفيسو سولت يستخدم الفصلين اللذين يشكلان الجزء الأول من الكتاب من أجل "تكوين المشهد" الذي يدين فيه السياسات الغربية في الأجزاء الثلاثة الأخرى من خلال رؤيته حول تفتيت الشرق الأوسط، فـ(سولت) يأخذ وجهة نظر صموئيل هنتنغتون وبرنارد لويس، اللذين تحدثا لأول مرة عن صراع الحضارتين الغربية والإسلامية، ويرى أن ما أطلق عليه هنتنغتون "الحدود الدامية للإسلام" تقف عند العالم الإسلامي، ويشير سولت إلى أنه على مدى قرن ونصف القرن على الأقل، كانت معظم الدماء التي أريقت في الشرق الأوسط دماء مسلمة، وعلي أيدي الغربيين، كما وصف سولت وحشية الاحتلال الفرنسي للجزائر الذي بدأ في عام ١٨٣٠م، والقصف المدمر للبحرية البريطانية على مدينة الإسكندرية المصرية في عام ١٨٨٢م، وذبح جيش خليفة المهدي السوداني في أم درمان عام ١٨٩٨م.

ويشير سولت إلى أن مصطلحي "الغرب" و"الشرق الأوسط" هما من المصطلحات القديمة، ويتفق مع الباحث البريطاني الكبير جيب، على أن ما كان يطلق عليه اسم "العالَمان" ارتبط ارتباطا وثيقا بالفترة الزمنية قبل وبعد ظهور الإسلام. ويرى سولت أن الحكومات الأوربية ترجمت التحول الذي أحدثته النهضة، وعصر التنوير والثورة الصناعية في أوربا إلى سياسات إمبريالية، واستفادت هذه الحكومات منها آنذاك على المستوى السياسي والاقتصادي، وقبل كل شيء كانت التكلفة البشرية على حساب شعوب الشرق الأوسط.

الفصول الخمسة للجزء الثاني من الكتاب تغطي انهيار الإمبراطورية العثمانية والهيمنة الفرنسية البريطانية التي تلتها في منطقة الشرق الأوسط، من خلال "الحرب الأهلية على طول نهر بوتوماك" التي سبقت قرار الولايات المتحدة بالاعتراف بدولة إسرائيل.

ويصف سولت تقطيع أوصال الإمبراطورية العثمانية، سواء بطريقة مباشرة أو عن طريق أعضاء في أوربا، وذلك بفصل وتفتيت المقاطعات العثمانية في منطقة البلقان وما وراءها، بدعم مادي وتشجيع من الحكومات الأوربية، وقد ذكر سولت بإيجاز أحداثا مثل مجزرة الأرمن في مدينة أضنة التركية، والتي قتل فيها نحو ١٨٠٠٠ أرمنيا في عام ١٩٠٩م، ولكننا نجد أن سولت كان عازما على أن يروي قصة أخرى - وهي معاناة المسلمين الكبيرة في الحرب العظمى، والتي عانى منها الأتراك في الفترة بين عامي ١٩١٢-١٩٢٣م، كما أن هناك فصلا يصف المشروع

البريطاني الفاشل في العراق؛ أولا صك الانتداب البريطاني على العراق، وبعد ذلك دعم النظام الملكي الهاشمي الذي لا يحظى بشعبية، و كان أبرز سياسي فيه نوري السعيد.

يكرس البروفيسور سولت ما يقرب من نصف كتابه لفلسطين وإسرائيل، ثم ينتقد السياسة الأمريكية والبريطانية؛ حيث وصف آرثر بلفور في وعد بلفور عام ١٩١٧م، الالتزامات البريطانية في فلسطين بأنها "لا تتفق مع الحقائق"، وأنها "غير متوافقة"، وكوزير للخارجية آنذاك؛ فقد كانت حكومته تنظر بعين العطف تجاه تأسيس وطن قومي لليهود، ولكن بشرط "عدم القيام بأي شيء قد يؤثر أو يمس الحقوق المدنية والدينية للجماعات غير اليهودية الموجودة" هناك.

وقد سمحت بريطانيا بهجرة أعداد كبيرة من اليهود إلى فلسطين لكي يصبح اليهود أغلبية، وكي تفوق أعدادهم أعداد السكان غير اليهود في فلسطين، كما تعاملت قواتها بقسوة مع المجتمعات الموجودة في فلسطين عندما بدأت المقاومة المسلحة ضد "الاستعمار المزدوج" الذي مثله البريطانيون والصهاينة، ثم تراجعت بريطانيا بعد أن انقلب الجهاديون اليهود عليها.

بعد ذلك، تناول الكتاب في بقية أجزائه تطور السياسة الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط، و"النقاط الساخنة"، خاصة في إسرائيل وفلسطين، وأيضا في لبنان والعراق، وكذلك الحرب بين إيران والعراق، فصعود اسرائيل منذ نشأتها في عام ١٩٤٨م إلى مكانتها الحالية والتفوق العسكري والقوة الاقتصادية الإقليمية التي تتمتع بها على اعتبارها الحليف الأقرب للولايات المتحدة الأمريكية في المنطقة، والمتلقي الرئيس للمساعدات الأميركية، كل هذه الاشياء وقائع، ناهيك عن هجمات إسرائيل الوحشية ضد جيرانها، والنفاق في تعاملها مع الحكومة الأميركية.

سياسة الولايات المتحدة في المنطقة، بداية من فشلها في كبح جماح إسرائيل من مهاجمة مصر في يونيو عام ١٩٦٧، إلى غزوها العراق واحتلالها لها بعد ٢٦ عاما، كلها أحداث مُدانة، لكنها على كل حال موثقة بشكل جيد وبتفاصيل مريرة.

وفي نهاية الكتاب، يطلب البروفيسور سولت من القارئ أن يقرر ما إذا كان سيتم النظر في يوم من الأيام إلى أحداث الحادي عشر على اعتبارها ناقوس خطر وإنذر بنهاية "القرن الأميركي الجديد"، وإذا ما كانت هذه النتيجة "جيدة بالنسبة لنا جميعا أو لا".

وعلى العموم؛ فالكتاب ليس موضوعيا في عرض قضيته؛ فعلى نقيض مناقشة إسرائيل وأصدقائها والغرب في المنطقة (والتي تمت مناقشتهم أحيانا بطريقة مشوهة) فإننا نجد أن الأعمال الوحشية، والنهب ورياء الحكومات العربية؛ لم تحظ بالاهتمام الكافي في الكتاب، وكما يقال؛ فإن تساؤلات سولت مشروعة، لكن لابد من تأمل كتابه بطريقة أخرى، قد تجعل من الممكن الإجابة على تساؤلاته، يوما ما، بشيء آخر غير كلمة نعم.

تشارلز دنبار، جامعة بوسطن